مفهوم الطريق وأهميته في القرآن والسنة - دراسة مقارنة

ID No. 2945

(PP 129 - 143)

https://doi.org/10.21271/zjhs.23.6.8

سداد جمال عبدالكريم

قسم أصول الدين - كلية العلوم الإسلامية / جامعة صلاح الدين - أربيل

Sudadcemal77@gmail.com

شكر محمود مامسيني

قسم الدراسات - كلية العلوم الإسلامية / جامعة صلاح الدين - أربيل

shukur.abdulla@su.edu.krd

الاستلام:2019/06/17

القـبول : 2019/09/24

النـــشر: 2019/12/05

ملخص

من المعلوم أن المرافق العامة لها أهمية قصوى في حياة أفراد المجتمع، كونها تشكل وسطاً يجتمعون فيه على اختلاف أجناسهم وأعمارهم و ثقافاتهم من أجل الانتفاع بها في مختلف شؤونهم. وفي الوقت الذي كانت المساجد والطرق ومقاعد الأسواق تمثل نماذج لتلك المرافق في العهود السابقة، فإن مدلولها المعاصر في يومنا هذا اتسع ليشمل المدارس والمستشفيات والحدائق العامة كذلك. وحظي الطريق بأهمية بالغة من بين المرافق العامة ولا يزال، ويعزى لحاجة الناس إليه في أمور معاشهم، ولكونه الرابط بين المرافق الأخرى على نحو تصعب معيشتهم إذا انقطع أو تدهور. واهتمام الشريعة الإسلامية بالطريق وما هو متعلق به دليل آخر على شأنه، غير أن نظرة الإسلام – قرآنا وحديثاً- إلى الطريق لا تنحصر في عده مرفقاً خدمياً، بل هي أوسع، لتشمل أبعاداً أخر على الصعيد الديني والاجتماعي والحضاري، فيرتقي بفكر الإنسان، ويدعوه إلى اليقظة والتدبر في استخدامه للطريق حقوقاً وواجبات والتزامات، ويهذب تصرفاته في الطريق ليكون لائقاً بصفة الخلافة في الأرض وعمارتها. وهدف البحث درس مرتكزات الشريعة الإسلامية في الاهتمام بالطريق ومفهومه قديماً وحديثاً، وبيان الحدود المرسومة لاستخدامه، وبيان مدى تغير أنظمته المعاصرة في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة.

الكلمات الرئيسة: الطريق، القرآن، السنة، أهمية.

1/ المقدمة

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى. أما بعد.. فإن الله تعالى وصف دين الإسلام بأنه كامل ورضي به لعباده في قوله الكريم [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا]، (القرآن الكريم، 5: 3)، ويكمن كمال دين الإسلام في أحكامه التي لم تغادر صغيرة ولا كبيرة في شؤون الإنسان إلا أحصتها وأولتها أهمية، ومنها المتعلقة بمحل عيش الإنسان، ومن المعلوم أن المحل الذي يكون فيه الإنسان نوعان، الأول ساكن فيه أغلب أوقاته وهو بيته، والثاني يمضي فيه بعضاً من وقته لكسب رزق أو طلب علم أو صلة رحم أو سفر إلى بلد وغير ذلك من الأمور، وبين المكانين سبيل يسلكه ذهاباً وإياباً، لو انقطع لما استطاع تحقيق ما ذكر، لذا كان الطريق هو المرفق الذي لا ينفك الإنسان عنه ولا يستغني عنه. وجاءت هذه الدراسة لبيان مفهوم الطريق وما طرأ عليه من تغير مع مرور الزمن، بدءاً بمفهومه في المعجمات القديمة ووصولاً به إلى أنظمة المرور المعاصرة، ثم بيان أهميته في القرآن الكريم والسنة النبوية ونظرتهما الواسعة للطريق وما هو متعلق به، وما رسماه من أبعاد دينية واجتماعية وحضارية للسالكين من خلال هذا المرفق.

1/ 2- أهمية البحث

تكمن أهمية البحث في أنه تناول موضوعاً من الموضوعات التي تهم المجتمع بمختلف فئاته، وهو موضوع الطريق، وهو المرفق الذي يحظى بأعلى نسبة ارتفاق به من قبل الناس مقارنة بنسب ارتفاقهم بالمرافق الأخرى، فكل من أراد الذهاب للمسجد أو السوق أو المستشفى أو نحو ذلك مما يحتاج إليه الناس من المرافق العامة لا بد وأن يستخدم الطريق، وتكمن أهميته في أنه يدرس نظرة الإسلام متمثلاً بالقرآن الكريم والسنة النبوية للطريق، وكيفية تعامله مع هذا المرفق المهم.

1/ 3- أهداف البحث

يهدف البحث إلى بيان مفهوم الطريق، والتغير الحاصل في ذلك المفهوم مع مرور الزمن، بدءاً من دلالته في المعجمات، ومروراً باصطلاح الفقهاء، ووصولاً إلى أنظمة المرور في العصر الراهن، ويهدف كذلك إلى بيان مدى اهتمام الاسلام بالطريق وكيفية تعامله معه، في ضوء آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول (صلَّى الله عليه وسلم).

1/ 4- الدراسات السابقة

لا يدعي البحث أن له قصب السبق في درس الموضوع، وإنما سبقته دراسات تناولت مفهوم الطريق منها رسالة ماجستير معنونة بـ(أحكام حوادث المرور في الشريعة الإسلامية) للباحث محمد علي مشبب القحطاني، مقدمة إلى مركز الدراسات العليا، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، عام 1988، تناول فيها مفهوم الطريق في اللغة واصطلاح الفقهاء وأنظمة المرور، إلا أنه لم يتعرض لبيان اهتمام القرآن والسنة بالطريق كونه مرفقاً مهماً من المرافق العامة على نحو ما يلحظ في هذه الدراسة، بل انتقل عمله إلى دراسة آداب الطريق، وتم بيان ذلك الاهتمام ودراسته مستفيضاً في هذا البحث، ورسالة ماجستير أخرى معنونة بـ(أحكام حوادث المرور والاثار المترتبة عليها في الشريعة الإسلامية) للباحث عمار شويمت، مقدمة إلى قسم العلوم الإسلامية، كلية العلوم الاجتماعية والإسلامية، جامعة الحاج لخضر – باتنة، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، عام 2011، تناول فيها مفهوم الطريق في اللغة وأنظمة المرور، ثم انتقل إلى دراسة آداب السلوك الإسلامي في المشي والانتقال، وما يميز هذا البحث عن تلك الدراسة المذكورة أنه تناول مفهوم الطريق في اللغة والاصطلاح وكتب الفقهاء وأنظمة المرور العاصر، وربط الحاضر بالماضي، وكذلك أنه تعرض لاهتمام القرآن الكريم والسنة الشريفة بشأن الطريق.

1/ 5- هيكل البحث وخطته

يتألف هيكل البحث من مقدمة وثلاثة مباحث، خصص المبحث الأول لدراسة مفهوم الطريق في اللغة والاصطلاح الذي شمل كتب الاصطلاح العامة واصطلاح الفقهاء، ثم دراسة ذلك المفهوم في أنظمة المرور كونها تهتم بالطريق اهتماماً خاصاً، عقب ذلك المبحث الثاني الذي تناول أهمية الطريق في القرآن الكريم وذلك في نقاط خمس تمثلت في نظرة القرآن للطريق كونه من مسخرات الله تعالى وأنه نعمة أنعمها على الإنسان، وكذلك ما يتعلق به من مركوب وعلامات للاستدلال، واهتمامه بأمن الطريق، وأنه رمز للحضارة وتكريم الإنسان، بينما خصص المبحث الثالث لدراسة أهمية الطريق في السنة الشريفة في نقاط خمس كذلك، تمثلت في إخبار السنة عن التعامل الإيجابي مع الطريق من الإيمان، وبيان ثواب ذلك التعامل، والتحذير من التسبب في الأذى في الطريق، وعد الطريق ميداناً لكسب الحسنات من خلال مساعدة الناس فيه.

6/1 من مصادر البحث

استقى البحث مادته العلمية من مصادر موثوقة ذات فوائد علمية جمة، وفي مجالات عديدة، ففي المجال اللغوي استند إلى معجمات لغوية قيمة، لكنه استفاد على نحو وافر من معجم (مقاييس اللغة) لابن فارس (ت هـ) حيث تفرد بين اللغوين بأسلوبه الشامل لمدلول الجذر وتعليلاته اللغوية، ومن التفاسير استفاد من (مفاتح الغيب) لفخر الدين الرازي (ت 606هـ) لتعقيباته الوجيهة على معاني الآية، ومن كتب شروح الحديث استفاد من (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحاج) للنووي (ت676هـ) لشرحه الفريد النافع للأحاديث الواردة في صحيح مسلم.

7/1 صعوبات البحث

لا يخلو نقر مثل هذه الموضوعات ودراستها من عراقيل وصعوبات، في مقدمتها التغيرات التي طرأت على الطريق ومتعلقاته في العصور المختلفة، وحاجة التوفيق بينها إلى مزيد من الدقة والتدبر في المصادر .

8/1 منهج البحث

المنهج المتبع في هذا البحث هو المنهج التحليلي للنصوص الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية عن الطريق، وأهميته وكيفية التعامل معه، وربطها مع واقع الطرقات وأهميتها في الزمن الحاضر كونه أوفق المناهج لدرس مثل هذه الموضوعات. ختاماً نقول إن هذا البحث الذي درست فيه مفهوم الطريق وأهميته في القرآن والسنة جهد بذلناه بعد التوكل على الله تعالى والأخذ بالأسباب، ولم ندخر فيه جهداً، ولا إتعاباً للناظر أو إسهاراً للخاطر، فإن وفقنا في إضافة لبنة علمية في موضوعه فمن الله تعالى وله الحمد والشكر، وإن دون ذلك، فحسبنا نحن باحثين، قد نصيب وقد نخطئ، والكمال لله وحده.

2/ مفهوم الطريق في اللغة والاصطلاح

تطور مفهوم الطريق مرحلياً مع مرور الزمن، وأصبح يعطي في كل مرحلة مدلولاً يختلف في جزئياته عن المرحلة السابقة، واتسمت مراحل التطور تلك بالتوسع في المدلول ليشمل جزئيات ومكونات، كلاً وفق نمط الحياة في تلك المرحلة، بدءاً من استخدام جذره (ط. ر. ق) في المعاجم اللغوية واشتماله على معاني ذلك الجذر ووجوه مناسبتها مع المعنى المعروف للطريق، وتوافقها في الشكل والهيئة معه، ومروراً بمفهومه في كتب الاصطلاح حيث الاستخدام الحقيقي له جنباً إلى جنب مع الاستخدام المجازي كواحد من المصطلحات المهمة في العلوم النظرية، وتعريجاً على اصطلاح فقهاء الشريعة والمعيار الشرعي لإنشاء الطريق، وانتهاءً إلى مفهومه في أنظمة المرور المعاصرة وتغير نمط الحياة على نحو أصبح سالكو الطريق مختلفين في هيئاتهم أثناء سلوك الطريق إلى حد جعلهم القيد الأساس في بيان المفهوم.من أجل ذلك حدد البحث منطلقات أربعة لبيان مفهوم الطريق، وهي اللغة، والاصطلاح، والكتب الفقهية، وأنظمة المرور المعاصرة، وذلك في مطالب أربعة.

2/ 1- مفهوم الطريق في معاجم اللغة

يذكر ابن فارس (1979، 449/3) أربعة معان لمادة (ط.ر.ق)، الأول الطروق وهو إتيان المنزل ليلاً، والثاني الضرب، والثالث الاسترخاء، والرابع خصف الشيء على الشيء حيث يقول: ((الطاء والراء والقاف أربعة أصول، أحدها: الإتيان مساء (...) فالأول الطُّروقُ. ويقال إنه إتيان المنزل ليلاً، قالوا: ورجل طُرَقَةٌ، إذا كان يسري حتى يطرق أهله ليلاً)). ثم يبين الربط بين هذا المعنى وبين تسمية الطريق بالطريق قائلاً ((ومن الباب – والله أعلم – الطريقُ لأنه يُتورد)) (1979، 449/3)، أي أن الطريق سمي بهذا الاسم لأنه يتم وروده من قبل الناس، فإذن الصفة الجامعة هي الورود والإتيان. ولغرض تأكيد هذه الصفة يذكر ابن فارس وجه تسمية قوم الرجل وأقربائه بالطارقة لأنهم يأتونه وهو يأتيهم فقال: ((ومنه [أي من باب الورود والإتيان] طارِقَةُ الرَّجلِ، وهو فخذه التي هو منها، وسميت طارقة لأنها تطرقه ويطرقها)) (1979، 450/3).

يعقب ذلك بذكر المعنى الثاني لمادة (ط.ر.ق) الذي هو الضرب يقول: ((والأصل الثاني: الضَّربُ، يقال: طَرَقَ يَطْرُق طَرْقَاً، والشيء مِطْرَقٌ وَمِطْرَقَةٌ، ومنه الطَّرْقُ، وهو الضَّرْبُ بِالْحَصَى تَكَهُّنًا)) (1979، 450/3). وهنا لم يبين وجه الربط بين معنى الضرب وبين تسمية الطريق، ولكن يبدو للبحث أن ذلك الوجه يظهر في أن الماشي في الطريق كأنه يضرب الأرض برجليه أثناء السفر والسلوك الاعتيادي.

معنى الاسترخاء هو المعنى الثالث الذي أورده ابن فارس لمادة (ط.ر.ق) فأفاد: ((والأصل الثالث: استرخاء الشيء، ومن ذلك الطَّرَقُ وهو لين في ريش الطائر)) (1979، 451/3). وكما فعل مع المعنى الثاني لم يبين وجه الوشيجة بين صفة الاسترخاء وبين تسمية الطريق، والذي يفهم أن صفة الاسترخاء في الشيء المدعاة للتحكم به شبيهة جدا بصفة الذُّل الموجودة في الطريق القابل للتحكم به.

لما عرج على المعنى الرابع الأخير من معاني مادة (ط.ر.ق) قال: ((والأصل الرابع: خصف شيء على شيء، يقال: نعل مطارَقة أي مخصوفة)) (1979، 452/3). فانطباق شيء على شيء وتراكبه عليه معنى من معاني تلك المادة، وهو صفة بيّن ابن فارس وجودها في هيئة الطريق حين قال: ((ومن الباب [أي باب طرق] وقد ذكرناه أولاً [عندما ذكر معنى إتيان المنزل ليلاً وبيّن وجه الربط بينه وبين بتسمية الطريق] وليس ببعيد أن يكون من هذا القياس: الطريق، وذلك أنه شيء يعلو الأرض، فكأنها طورقت به وخصفت به)) (1979، 452/3). فبروز الطريق عن الأرض وارتفاعه عنها حتى يبدو كأنه قد تراكب عليها مثل طبقة، وجه الربط بين تسمية الطريق وبين مادة (طرق).

جاء بعده الزمخشري وذكر طائفة من تلك المعاني وأضاف معنى القرع والتسهيل حين قال: ((طرق الحديد بالمطرقة والمطارق. وطرق الباب: قرعه. وطرق الصوف بالمطرق وهو القضيب)) (1998، 602/1). وعن معنى التسهيل قال: ((وطرق طريقا: سهّله حتى طرقه الناس بسيرهم)) (1998، 602/1). وقد ورد الطريق مذكرا ومؤنثاً في لغات العرب، وذكرت بعض الدراسات أن الطريق يذكر في لغة نجد، أما التأنيث ففي لغة الحجاز (الأزهري، 2001، 13/9، أبو الحبيب، 1988، 288).

2/ 2- مفهوم الطريق في كتب الاصطلاح

اطلع الباحثان على أشهر كتب التعريفات الإصطلاحية بحثاً فاتشين عن مفهوم الطريق فيها، فوجدا بعضها قد نأت بالمفهوم بعيدا عن معناه المألوف (الجرجاني، 1983، 141) والبعض الآخر أوردت تعاريف لغوية ومنها: ((الطريق: لغة: السبيل الذي يطرق بالأرجل أي يضرب، وكل ما يطرقه طارق معتادا كان أو غيره)) (المناوي، 1990، 226) ، ففُسر الطريق بمرادف له (السبيل) وأُخذ من مشتقات الكلمة معنى الطرق بالأرجل، ولكن مع ذلك لما أراد بيان معنى كلمة (السبيل) قال أنه: ((طريق الجادة

السائلة عليه الظاهر لكل سالك منهجه، فهو أخص من الطريق فإنه كل ما يطرق الطارق معتادا كان أو غيره)) (المناوي، 1990، 190) ، فالسبيل أخص من الطريق والسبب يعود إلى الاشتقاق: ((واشتقاقه من الجريان من قولك سبل السحاب مطر، والستر أرسله وطوله فسمي الطريق سبيلا لكثرة الجريان فيه بالمشي)) (المناوي، 1990، 190)

إلى نحو قريب ذهب معاصره أبو البقاء الكفوي (ت1094هـ) وقال معرفاً الطريق بأنه: ((كل مَا يطرقه طَارق معتادا كان أَو غير معتاد فهو الطريق، والسبيل من الطَّرِيق: ما هو معتاد السلوك، والطريق الموصل إلى البلد يُسمى عدلا، وما لا يُوصل إليع يُسمى جائرا)). (الكفوي، د.ت، 581) ، فالكفوي يرى الجزء الذي يسير عليه الإنسان ويطرقه الناس بأرجلهم طريقا، سواء أكان معتاداً أي مستعملاً بكثرة أم لم يكن معتاداً، وأن السبيل أخص من الطريق، لأنه معتاد السلوك، أي أن الناس يسلكونه فأصبح معتاداً بذلك. ثم بيّن أنواع الطريق من حيث الإيصال وعدمه.

2/ 3- الأسماء المرادفة للطريق في القرآن الكريم

وردت في القرآن الكريم أسماء مرادفة للطريق في المعنى، أشهرها كلمة (السبيل) التي وردت (28) مرة، وكلمة (الصراط) (6) مرات، وهي إذا كانت معرفة دلت على معنى الدين والمنهج الإسلامي، والحق، (ابن كثير، 1419، 52/1) وكذلك إذا ووردت نكرة دلت على معنى الدين الحق، (أبو السعود، د.ت، 40/2) إلا في موضع واحد، حيث وردت نكرة ودلت على الطريق حقيقة، وذلك في قوله تعالى: (وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)، (الأعراف، 7: 86)، ووردت أسماء دلت على معنى الطريق حقيقة لا مجازاً منها (فج) الذي يعني الواسع من الطريق، قال عنه بعض المفسرين: (الفج: الشق بين جبلين تسير فيه الركاب، فغلب الفج على الطريق لأن أكثر الطرق المؤدية إلى مكة تسلك بين الجبال)، (ابن عاشور، 1984هـ، 245/17)، كما في قوله تعالى: (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) (القرآن الكريم، 22: 27)، و(النجد) في قوله تعالى: (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) (البلد، 90: 10)، ومعناه الطريقين والمراد به الخير والشر (ابن كثير، 1419هـ، 393/8).

2/ 4- مفهوم الطريق في كتب الفقه

بعد أن رجع الباحثان إلى مصادر ومراجع فقهية للبحث عن تعريف فقهي لكلمة الطريق، تبين له أن الفقهاء رحمهم الله تعالى عرّفوا الطريق وفق أنواعه لا وفق ماهيته، ذلك أن الطريق إذا أطلق ما دل على إلا على المكان المخصص للمرور، وهذا المعنى كان وما زال مألوفاً، ولم يزيدوا على معناه اللغوي شيئا، لذا لجؤوا إلى قيود خارجة عن ذات الطريق، وعليه فعند تعريف الطريق في اصطلاح الفقهاء لا يقف الباحث عن كلمة الطريق بل يتجاوز إلى ما بعده من القيد، سواء أكان حجماً، أو نفاذاً. وفي بيان أنواع الطريق اعتدوا بقيدين وهما:

أولا: السعة: فذكروا الطريق الأعظم والشارع والسكة والزقاق والدرب (ابن النجيم المصري، د.ت، 39/6، القرافي، 1994، 363/10).

ثانيا: النفاذ وعدم النفاذ: فذكروا الطريق النافذ والطريق غير النافذ، وكذلك السكة النافذة والسكة غير النافذة، والدرب النافذ والدرب غير النافذ، وهلم جراً.

يقول التهانوي في تعريف الطريق: ((وعند الفقهاء هو قسمان: الطريق العام ويسمّى بالنافذ وبالطريق العام أيضا، والطريق الخاص ويسمّى بالطريق غير النافذ والطريق الخاص أيضا)) (التهانوي، 1996، 1133/2).

بما أن معنى الطريق واضح ومعروف لم يقدم فقهاء الحنفية تعريفاً له، ونادراً ما يتعرض أحدهم لتعريفه، كما ورد في قول بعضهم ((والطريق ممر الناس عادة)) (ابن عابدين، 1992، 116/3)، وورد لدى الأحناف أيضاً تقسيم للطريق وبيّنوا أنه ثلاثة: ((طريق إلى الطريق الأعظم، وطريق إلى سكة غير نافذة، وطريق خاص في ملك إنسان)) (ابن مازة، ب، 2004، 310/6)، والطريق الخاص الواقع في ملك إنسان يكون غير نافذ (الزيلعي، ع، 1313هـ، 240/5، ابن النجيم المصري، د.ت، 143/8). وهنا أيضاً لم يتعرضوا إلى ماهية الطريق، وإنما صنفوه إلى أنواع. كما وصف بعضهم نوعاً من الطريق بالعريضة وعرفوها بأنها ((ما تمر به العامة ويمر به الواحد أو الاثنان خاصة، وقيل ما تمر به العجلة وحمل البعير والمحمل)) (العيني، م، 2000، 353/2). وأورود بعضهم نوعاً آخر من الطريق وهو الطريق النافذ وعرفوه قائلين: ((الطريق النافذ الذي لا يستحق به الشفعة ما لا يملك أهله سده)) (الكاساني، 1986، 9/5).

لم يختلف الحال عند الشافعية، فنجد في بعض كتبهم تعريفاً للطريق لا يكاد يبين ماهيته، وإنما بيان لبعض أحواله، وذلك كتعريفهم للطريق بأنه ((ما جعل عند إحياء البلد أو قبله طريقاً، أو وقفه المالك ولو بغير إحياء)) (الخطيب الشربيني، د.ت، 308/2) ، والذي يفهم من هذا التعريف أنه لم يصف الطريق من حيث ماهيته، وإنما ذكر قيداً مقترناً بوقت جعله طريقاً، وهو

وقت إحياء البلد أو قبل الإحياء، وكذلك ذكر قيداً آخر وهو وقف المالك لجزء من أرض يملكها وجعله طريقاً وإن لم يقم بإحياء الأرض. وقال آخرون من الشافعية ((ما ترك على هيئة الطريق أو اعتاد الناس المرور فيه قبل الإحياء)) (الرملي، 1984، 396/4). فالجزء المتروك على شكل الطريق أو اعتياد الناس المرور في مكان ما هو الذي يجعله طريقاً. في حين بيّن آخرون الطريق النافذ وقالوا: ((ويعبر عنه بالشارع وقيل بينه وبين الطريق اجتماع وافتراق لأنه يختص بالبنيان، ولا يكون إلا نافذا والطريق يكون ببنيان أو صحراء ونافذا أو غير نافذ، ويذكر ويؤنث)) (البجيرمي، 1995، 99/3) ، وتأسيساً على ما سلف فإن بين الطريق والشارع عموم وخصوص، فكل شارع طريق ولكن ليس كل طريق شارعاً، والذي يميز الشارع عن الطريق: أنه يكون داخل المدن وهذا المراد من قوله (ويختص بالبنيان) ويكون مفتوحاً من جهتيه، في حين أن الطريق يكون داخل المدن وخارجها، وقد يكون مسدوداً من إحدى جهتيه، والفارق الثالث أن الطريق يقبل التذكير والتأنيث في حين أن الشارع لا يكون إلا مذكرا.

أما عند المالكية والحنابلة فلم يجد الباحث لتعريف الطريق مبتغاه في كتبهم، بل كان شأنهم أنهم قسّموا الطريق إلى سكة وزقاق ونحو ذلك، والتعريف بالتقسيم ليس تعريفاً لذات المعرف وإنما بيان لأنواعه.

ربما يعزى السبب في ذلك إلى وضوح كلمة الطريق، فهي إذا أطلقت لا تدل في الوهلة الأولى إلا على ما يسلكه الإنسان للوصول إلى مكان ما، فلم يكن الفقهاء رحمهم الله تعالى في حاجة إلى بيان شيء واضح، هذا فضلاً عن أن المعجمات اللغوية قد بينت جذر كلمة الطريق، ودرست مادة (ط.ر.ق) بالتفصيل.

2/ 5- مفهوم الطريق في أنظمة المرور المعاصرة

أ- تعريف الطريق في نظام المرور العراقي:

ورد تعريف الطريق في نظام المرور العراقي على أنه: ((هو كل حيز معبد او غير معبد مصمم او تستخدم بشكل طبيعي للمركبات او المشاة (...) ربما يقسم الى خطوط مرور متعددة للسير في نفس الاتجاه أو متعاكس)) (جمهورية العراق، وزارة الداخلية، 2004، 2). ومما يدل عليه التعريف:

1- التعريف شامل لكل أنواع الطريق في إقليم كوردستان وكذلك جمهورية العراق سواء أكان معبداً أي مبلطاً أم ترابياً.

2- مما يدل عليه التعريف أيضا أن الطرق قد صممت بشكل أساسي لغرض السير. وعليه يكون السير هو الهدف الأساسي الأول لاستخدام الطريق، وكل ما يعترض هذا الهدف ولو بشكل مؤقت، لابد من إزالته، فالوقوف والإيقاف إذا كانا مانعين للسير فيمنعان، والارتفاق بالطريق لغير غرض السير كالبيع إن كان يؤثر سلباً على الغرض الأساسي للطريق يمنع.

3-دل التعريف أيضاً على أن الطرق تقسم إلى خطوط متعددة، ويعني به الطرق المعبدة لإمكانية تلوينها بصبغ الإسفلت الأسود بالخطوط البيضاء لأغراض مرورية. أما غير المعبدة أو غير الترابية فمن الصعب تلوينها وصبغها بتلك الخطوط. ودل كذلك أن هذه الخطوط تستخدم إذا كان السير في نفس الاتجاه أو في الاتجاه المعاكس.

4- مما دل عليه التعريف أن سائقي المركبات والمشاة مشتركون في استخدام الطريق وهذا يعني أن الطريق يشمل الجادة والرصيف أيضا، وكل منهما مخصص لأحد المذكورين.

مما يؤخذ على هذا التعريف:

1- أنه لم يذكر الحيوانات، سواء السائبة أو المقتادة، وتحديداً في القرى، لكثرة استخدام تلك الحيوانات لأغراض زراعية، أو نقل أو تربية في عموم العراق وإقليم كوردستان. والذي يخلص إليه البحث هنا أن تسيب الحيوانات يتسبب في وقوع حواث مرورية لذا لم ينص عليه التعريف في نظام المرور العراقي.

2- لم يبين نوع الطريق وفق المركبات، لأنه ثمة طرق يمنع دخول المركبات الطويلة إليها، وهي مخصصة لنوع معين من المركبات.

ب- تعريف الطريق في نظام المرور في المملكة العربية السعودية:

ورد تعريف الطريق في نظام المرور السعودي الصادر بالمرسوم الملكي رقم م/49 وتاريخ 1391/11/6هـ بأنه: ((كل سبيل مفتوحة لسير وسائط النقل والجر والمشاة والحيوانات)) (القحطاني، 1988، 23). والذي يؤخذ على هذا التعريف أنه تعريف لغوي حيث فسر الطريق بمرادف له (سبيل) وليس من شروط التعريف الجامع المانع أن يُعرّف المعرّف بمرادف له، وليس جامعاً، لأنه بقيد (مفتوحة) لا يشمل الطريق غير النافذ. ولعل السبب في إيراد هذا القيد أنه لم يعد للطريق غير النافذ وجود في التخطيط الحضري المعاصر للمدن، وإن كنا نجدها بكثرة في إقليم كوردستان.

مما يدل عليه التعريف أن الطريق مخصص لسير المركبات سواء كانت للنقل كالحافلات أو الجر كالقاطرات، ومخصص أيضاً لسير المشاة، مع أنه لا يقصد به نهر الطريق عند ذكر كلمة المشاة، أو ما يسمى في اللغة بجادة الطريق، لأن المكان المخصص لهم هو الرصيف، ولكن الرصيف يعد من الطريق، كجزء يكاد لا ينفصل عنه إلا نادراً.

مما يؤخذ على التعريف أيضاً أنه لم يبين مكان سير الحيوانات هل هو على الرصيف أم جادة الطريق. لكن الذي يفهم هنا أن مكان سير الحيوانات هو جادة الطريق بدليل أنه صرح بأن للحيوانات حق السير في الطريق وذكر في البند رقم 34/1/50 الأحكام المتعلقة بسير الحيوانات الوارد في الإصدار الجديد بالمرسوم الملكي رقم م/85 وتاريخ 1428/10/26هـ و قد تم إجراء تعديلات على مختلف بنوده، ومنها تعريف الطريق حيث نص أنه ((كل سبيل مفتوح للسير العام)) (المملكة العربية السعودية، وزارة الداخلية، 1429هـ، 8)، والسير العام يشمل المركبات والمشاة والحيوانات لوجود صفة السير في الكل، ويشمل السير في الحضر والبادية.

ج- تعريف الطريق في نظام المرور الأردني:

أما عن تعريف الطريق في نظام المرور الأردني فقد جاء مفصلاً، حيث نص بأنه: ((السبيل المخصص للمرور العام بما في ذلك مرور المركبات والمشاة ويشمل الجسور والأنفاق والساحات المعدة للوقوف)) (المملكة الأردنية، وازرة الداخلية، 2008، 12). وواضح أن في هذا التعريف دليلاً على أن الطريق معد لسير المركبات والمشاة، ولم يذكر الحيوانات كما ورد في التعريف السعودي، ذلك أنه لا توجد مظاهر تسيب الحيوانات في الشوارع الأردنية، بخلاف الشوارع السعودية، حيث توجد هذه الظاهرة بشكل منتشر وعلى الأخص تسيب الإبل. ومما دل عليه التعريف كذلك أن الطرق لا يكون على شكل واحد، بل قد يكون بعض أجزائها على شكل جسور وبعضها الآخر على شكل أنفاق وبعضها على شكل ساحات للتوقف.

الذي يؤخذ عليه أنه استعمل كلمة السبيل وهي كلمة مرادفة لكلمة الطريق، ويؤخذ عليه أيضاً عدم ذكر الصحاري حيث أن هناك طرقاً ترابية لم يدخل ضمن التعريف لذا يعد تعريفاً غير جامع، فلو أضيف إليه لكان أفضل.

يستخلص من التعاريف السابقة للطريق كذلك أنها حصرت معنى الطريق في اليابسة فقط، وأخرجت الطرق البحرية والجوية، بينما هاذان النوعان من الطريق في حالة سلوك دائمة،. والتعريف الجامع المانع للطريق هو ما أورده بعض الدارسين المعاصرين ونصه: ((المكان المخصص لسير الناس أو المواشي أو العربات أو السفن أو الطائرات في البر أو البحر أو الجو)) (القحطاني، 1988، 24). فهو لم يعرف الطريق بمرادف له، وكلمة المكان عامة تدل على المدن والقرى والصحاري، وتدل على المبلط وغير المبلط، وبذكر السفن والطائرات أدرج الطرق البحرية والجوية فيه أيضا.

3/ أهمية الطريق في منظور القرآن الكريم

تختلف نظرة القرآن الكريم للطريق عن نظرته لغيره من مكونات الأرض، إذ أنه بالرغم من كون الطريق مشتركاً مع غيره من مخلوقات الله تعالى كالشمس والقمر والبحار والجبال ونحو ذلك في صفات، لكنه يحوي صفات أُخَر لا يحويها غيره، وهو يؤدي وظائف لا يؤديها غيره، وللطريق بشكل خاص صلة وثيقة بحياة الإنسان على الأرض، إذ تشكل ركيزة من ركائز الجانب الاقتصادي بنقل البضائع من مكان إلى آخر، وكذلك الجانب الاجتماعي إذ يسلكه للتواصل مع الأقارب والأصدقاء، ومن أجل مزيد بيان لما سبق سيعرض البحث نظرة القرآن للطريق في الفروع الآتية:

3/ 1- الطريق من المسخرات على الأرض

من الأسس التي تتجلى فيها نظرة القرآن الكريم للطريق كونه أحد المسخرات التي هيأها الله سبحانه وتعالى في الأرض، مؤدياً وظيفته في تسهيل عيش الإنسان على المعمورة، وبدونه أو تعطيله تصعب حياة الناس ومعاشهم، وقد وصف الله سبحانه مخلوقات السماء والأرض بصفة التسخير حيث يقول سبحانه في قرآنه الحكيم: [وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] (القرآن الكريم، 45: 13)، ففي الآية تقرير بأن ما في السماوات والأرض قد سخره الله سبحانه وتعالى لانتفاع الإنسان، وكل ما في الكون يؤدي وظيفة سواءً علمناها أم لم نعلم. والطريق أحد مسخرات الله تعالى في الأرض، وبه تستقيم حياة الإنسان عليها، إذ لا ينفك الإنسان عن التنقل والتجوال من مكان إلى آخر طلباً للرزق أو غيره، ولو لم يجعل الله تعالى الطرق في الأرض لاستصعبت الحياة. وقد جاء ذكر ذلك في مواضع كثيرة في القرآن الكريم ومنها قوله تعالى: [وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ] (القرآن الكريم، 31:21)، بيّنت الآية أن وجود الجبال ضروري لاستقرار القشرة الأرضية، كذلك وجود السبل والطرقات ضروري لاهتداء الإنسان إلى المكان الذي يبغي الوصول

إليه، والذي يلحظ في القرآن الكريم أن أكثر المواضع التي تذكر فيه السبل تذكر معها الجبال باسمها أو صفاتها، أو يذكر معها استقرار الأرض وانبساطها، مما يشير إلى وجود علاقة بين الجبال والطرق، حيث تؤدي الجبال إلى الاستقرار في الأرض، وهذا الاستقرار والانبساط أساس السير في الطريق. يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى: (والجبال أرساها) (القرآن الكريم، 32:79) ، ((ثم ذكر تعالى الأرض، وما جعل فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات، لتقر الأرض ولا تميد، أي: تضطرب بما عليها من الحيوان فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك)) (ابن كثير،1999، 563/4).

في تفسير قوله سبحانه: [الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ] (القرآن الكريم، 10:43) يقول صاحب تفسير مفاتيح الغيب: ((قوله الذي جعل لكم الأرض مهدا وقد ذكرنا في هذا الكتاب أن كون الأرض مهدا إنما حصل لأجل كونها واقفة ساكنة ولأجل كونها موصوفة بصفات مخصوصة باعتبارها يمكن الانتفاع بها في الزراعة وبناء الأبنية في كونها ساترة لعيوب الأحياء والأموات، ولما كان المهد موضع الراحة للصبي جعل الأرض مهدا لكثرة ما فيها من الراحات. الصفة الخامسة: قوله وجعل لكم فيها سبلا والمقصود أن انتفاع الناس إنما يكمل إذا قدر كل أحد أن يذهب من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم، ولولا أن الله تعالى هيأ تلك السبل ووضع عليها علامات مخصوصة وإلا لما حصل هذا الانتفاع. ثم قال تعالى: لعلكم تهتدون يعني المقصود من وضع السبل أن يحصل لكم المكنة من الاهتداء، والثاني المعنى لتهتدوا إلى الحق في الدين)) (الرازي، 1420هـ، 620/27).

مؤدى ذلك أن نظرة الإسلام إلى الطرق نظرة تقدير واحترام، فالطرق آية من آيات عظمة الله تعالى وقدرته وحكمته، والإسلام يطلب من المسلم أن يقف وقفة تأمل أثناء سلوكه الطريق، إذ ليس من قادر على تذليل الأرض من دون الله تعالى، وعليه تبجيل واحترام الطرق كاحترامه للجبال والبحار والسماء والشمس والقمر وغيرها من مخلوقات الله تعالى. وعلى النقيض من ذلك، الذي يعيث في الطرق فساداً كأن يتسبب عمداً في حوادث المرور، أو إيذاء المشاة أو أو أي شكل من أشكال الإفساد، هو مستهزئ ومنتقص من شأن آية من آيات الله تعالى.

2/3- الطرق من نعم الله تعالى

تتمثل نظرة القرآن الكريم للطرق في جانب آخر، وهو أن الطرق نعمة من نعم الله تعالى على الإنسان، والله سبحانه يمنُّ على عباده بأن جعل لهم الأرض ذلولاً وسلك فيها سبلاً يسلكها الناس بغرض السفر أو التجارة أو غيرهما، علماً أن أكثر الناس لا يدركون هذه النعمة لإيلافهم إياها، وهناك أدلة من القرآن تنص على أن الطرق من نعم الله تعالى، وسيعرض البحث تلك الأدلة فيما يأتي:

1- قوله تعالى: [الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا] (القرآن الكريم، 53:20)، حرف (اللام) في كلمة (لكم) تعني لأجلكم لصالحكم وما فيه خيركم وانتفاعكم، فهذه السبل قد هيأها الله تعالى لأجل عباده، وهي نعمة يمن بها عليهم، يقول البغوي (ت 510) تفسيره: ((والمعنى أدخل في الأرض لأجلكم طرقا تسلكونها)) (1420هـ، 264/3)، ومن الدلالات التي تدل عليها اللام دلالة الملكية والاختصاص (الشعراوي، 1997، 1244/2).

2- من الأدلة على كون الطرقات في الأرض نعمة من الله تعالى أنعمها على الإنسان ورود ذكر الطرق في سورة النحل ومنهم يسمونه بسورة النِّعَم، إذ عدد الله تعالى بعضاً من نعمه في هذه السورة، ومنها الطرق، حيث يقول سبحانه: [وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ] (القرآن الكريم، 16: 15)، فبين أن الغرض من إلقاء الجبال في الأرض رواسي هو ثبات الأرض، والغرض من الأنهار والسبل هو الاهتداء، سواء الاهتداء الحسي بأن يصل الإنسان إلى المكان الذي يقصده، أو الاهتداء المعنوي بأن يتذكر العبد نعمة الله عليه فيشكره وبذلك يهتدي إلى مراد الله تعالى. ولو لم تكن الطرق من نعم الله سبحانه لما ذكرها في سورة النعم.

3- من الأدلة كذلك ما أخبر به القرآن الكريم في قصة قوم سبأ في سورة سبأ، حيث يقول سبحانه: (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (*) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (*) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (*) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (*) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (*)) (القرآن الكريم،34: 15-19) ، في قراءة تحليلية بتدبر لهذه الآيات الكريمة يتبين أن الله تعالى قد أنعم على قوم سبأ في اليمن نعمتين عظيمتين، أولاهما نعمة الرزق الوفير، والتي تمثلت في جنتين عن يمين مسكنهم وشمالهم، وأمرهم ربهم أن يشكروه على هذه النعمة، لكنهم أعرضوا وامتنعوا عن الشكر فعاقبهم الباري عز و جل بأن بدل جنتيهم الوافرتين بأخريين

ذواتي ثمار رديئة، أما النعمة الثانية فتمثلت في نعمة الطريق، حيث جعل الله سبحانه طريقهم الذي كانوا يسلكونه في سفرهم إلى بلاد الشام متصفاً بصفات، الصفة الأولى: وجود قرى متقاربة ظاهرة للسالك مما يعني كفاية مؤن الطعام وحل مشكلة المأوى والمبيت، والصفة الثانية: المسافات كانت مقدرة وبمقدار معلوم للمسافر بحساب الأيام والليالي، وبهذا كان يعلم كم مضى من سفره وكم بقي، والصفة الثالثة، وجود الأمان في الطريق، فكان المسافر لا يخاف على نفسه ومتاعه وإن طال سفره، وبالرغم من وجود هذه النعمة لكنهم لم يشكروا ربهم عليها، وطالبوا عناداً وظلماً أن يباعد الله تعالى في أسفارهم، فعاقبهم الله تعالى بعد أن بطروا النعمة وملوا العافية وطالبوا بالكد والتعب، وكان عقابهم أن فرقهم الله وشتت شملهم في الأرض، فلم يعودوا قادرين على السفر، ويرى البحث أن تفريقهم وتشتيتهم تمثل في انعدام الصفات الثلاثة المذكورة آنفاً، فكانوا في لم وجمع بسبب وفرة الرزق وكثرة القرى في طرقهم مع أمنهم على أنفسهم، لكن انعدامها أدى إلى نقيضها. ولو لم تكن الطرق نعمة لما ذكره القرآن الكريم ضمن تفاصيل قصة قوم سبأ.

4- قريباً من هذه القصة توجد سورة أخرى في القرآن تسمى سورة قريش، وسميت السورة بهذا الاسم لأنها تتحدث عن قوم قريش الذين عاندوا وأعرضوا وصدوا عن سبيل الله، فنزلت هذه السورة تذكّرهم بنعمة الله تعالى عليهم وهي اعتيادهم التجارة عبر رحلتين، إحداهما في الشتاء والأخرى في الصيف، فقد هيأ الله تعالى لهم سبيل التجارة مرتين في العام، وزادهم على ذلك أن آمنهم من بطش الناس بهم، وضمن لهم بتجارتهم المال الوفير، وهذان العنصران، الأمن العسكري والأمن الغذائي أساس الحضارة والعيش الهنيئ، وفي مقابل هذه النعمة أمرهم الله تعالى أن يشكروه، والشكر يكون بعبادته تعالى، يقول سبحانه: (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (*) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (*) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (*) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (*)) (القرآن الكريم، 106: 1-4)، يقول ابن اكثير: ((ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة فقال: ليعبدوا رب هذا البيت أي فليوحدوه بالعبادة)) (1419هـ، 467/8). ولولا وجود الطريق لما استطاعت قريش التجارة عبر تلك الرحلتين. وتذكير الناس بالنعم أسلوب من أساليب القرآن الكريم حتى يعبدوا الله تعالى وحده ولا يشركوا به شيئا، وعلى وجه الخصوص مع أهل المرؤءة لما عرفوا من الاستحياء من المنعم (الشوكاني، 1414هـ، 289/3، ابن عاشور، 1984، 214/24).

لا تنحصر نعمة الطريق في ذاته ولا ثباته، بل ما يستخدم في سلوك الطريق معدود من النعمة، وعند البحث عن هذا الجانب في القرآن الكريم يتبين أنه ذكر أمرين، أولهما: المركوب، والثاني: العلامات. وفيما يلي بيان موجز لكل منهما:

أولاً/ المركوب

جاء ذكر المركوب في مواضع القرآن الكريم عند الحديث عن نعم الله عز و جل على الإنسان، وتمثل ذلك المركوب في صنفين رئيسين، هما الأنعام، والسفن، اللذان يمثلان النقل البري والبحري، كما في قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (*) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (*)) (القرآن الكريم، 40: 79-81) ، فبيّن الله تعالى الحكمة من خلق الأنعام وقد تمثلت تلك الحكمة في غايات أولها الركوب، وثانيها: الأكل، وثالثها: منافع قد تكون تجارية، ببيعها وشرائها، وقد تكون المنافع استعمال صوفها ووبرها وجلدها وأشعارها وألبانها (البغوي، 1420هـ، 123/4)، ورابعها: بلوغ الحاجة حمل المتاع من بلد إلى بلد (أبو السعود، د.ت 286/7)، وخامسها: الحمل عليها للأسفار البعيدة، ودل عليه عطفه على الفلك (السفينة) فهي تُركب للسفر البعيد.

كما ورد ذكر دواب أخرى هي الخيل والبغال والحمير، وفي ذلك يقول القرآن: (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (القرآن الكريم، 16: 8)، أي خلقت الخيل والبغال والحمير لأجل ركوبها، وإضافة إلى غرض الركوب ذكر القرآن غرضاً آخر وهو اتخاذ تلك الدواب زينة،. أما ما يتعلق بجملة (ويخلق ما لا تعلمون)، فقد فسرها المفسرون المعاصرون بما استحدث من وسائل النقل الحديثة، كابن عاشور فقد أورد كلاماً قريباً من ذلك قائلاً: ((فما حدث بعد ذلك من المراكب منبأ به في هذه الآية)) (1984، 130/1) ، والزحيلي أورد كلاماً فيه تفصيل أكثر حيث قال: ((ومن مظاهر قدرة الله أيضا أنه خلق الخيل والبغال والحمير للركوب عليها والتزيّن والمفاخرة بها، ويتجدد الخلق كذلك، فهو سبحانه يخلق للناس غير هذه الحيوانات ويلهمهم صناعة وسائل نقل كثيرة مما نشاهده من النّعم الحديثة من قطارات وطائرات وسفن وسيارات وغيرها. مما لا يعلم به الإنسان، فإن مخلوقات الله تعالى من الحيوان وغيره لا يحيط بعلمها بشر، بل ما يخفى عنه أكثر مما يعلم)) (1422هـ، 1245/2). ويضيف البحث كلاماً إلى ما سبق وتحديداً عند قوله تعالى: (وزينة) حيث أن ثمة معان أخر كامنة وراء هذه الكلمة، منها أن السائقين إذا عدّوا سياراتهم من الزينة لتعاملوا معها بعناية فائقة، فلا يرضون أن تخدش أو يلحق بها ضرر، ناهيك عن حالات الاصطدام أو الانقلاب أو الدهس أو غيرها، وهذا يؤدي إلى تفادي حوادث المرور.

أما الآيات الدالة صراحة على كون المركوب نعمة هي قوله تعالى: (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (*) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (*) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (*)) (القرآن الكريم، 43: 12-14)، بيّن جمع أهل العلم أن بعد ذكر ما دعت إليه الحاجة بيّن الغاية منها وهو شكر المنعم بذكر النعمة بالقلب وشكرها باللسان في وقت لم يكن في استطاعتكم تسخيرها واستخدامها (الشربيني، 1285هـ، 3/555-556) ، فهذه الآيات تربي المسلم وتؤدبه كيف يتعامل مع نعم ربه، ومنها نعمة المركوب سواء في البحر أو البر، وتذكره بأن لا ينسى المُنْعِمَ بسبب النعمة، بل يذكره ويسبحه ويحمده ويشكره، ويقر له بأنه سبحانه هو الذي سخر المركوب، والحال أن الإنسان ما كان له أن يسخره ،ثم يأتي الوازع الموجِّه المهذِّب، الإيمان باليوم الآخر، والذي دل عليه قوله تعالى حكاية عن لسانهم (وإنا إلى ربنا لمنقلبون)، والانقلاب في اللغة هو الرجوع مطلقاً (ابن منظور، 1414هـ، 1/686)، فالذي يتذكر الآخرة حين ركوبه المركوب وقيادته إياه يجتنب منهيات الشرع في الطريق، فلا يغتر ولا يطغى بالمركوب، ولا يعيث في الطريق فساداً، وهكذا يجنّب نفسه وغيره من حوادث الطريق. فشتان بين سائق يذكر الله تعالى واليوم الآخر عند الركوب وأثناء قيادة السيارة، وبين سائق يغتر بما يملكه من سيارة فاخرة، ويقودها بتهور ويعرض نفسه وغيره لخطر الموت.

ثانياً/ العلامات

إكمالاً لتلك النعم يذكر القرآن الكريم نعمة أخرى هي أسباب الاهتداء التي يهتدي بها الإنسان في طريقه فلا يضل عن مقصده، والآية التي تتحدث عن ذلك هي قوله تعالى: (وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) (القرآن الكريم، 16: 16) ، وتلك الأسباب وفق ما نصت عليه الآية نوعان، أحدهما: أسباب تستفاد منها في وقت النهار، والاخر أسباب تستفاد منها في وقت الليل، أما النوع الأول مقره الأرض فسماه القرآن بالعلامات، وأورد معظم المفسرين وغيرهم من أهل العلم في تفسيرها أقوالاً متوافقة، فأثبت أكثرهم ثلاثة أقوال في تفسير العلامات أحدها أنها معالم الطرق، والثاني أنها النجوم والثالث أن العلامات الجبال (الطبري، 2000، 14/192، ابن الجوزي، 2004، 1/193، البغوي، 1420هـ، 3/75)، والنوع الثاني مقره السماء، ويتمثل في النجوم التي تكون على شكل أبراج، أو نجمة واحدة هي نجمة الشمال ويسمى بالنجم القطبي.

ورد ذكر ذلك في مواضع أخرى من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (القرآن الكريم، 6: 97)، والنجوم من مسخرات الله تعالى وفي ذلك يقول بعض العلماء في معنى تسخير ما في السماوات والأرض، ((من جملة ذلك التسخير ما هو منافع لنا من الأمطار والرياح ونور الشمس والقمر ومواقيت البروج والمنازل والاتجاه بها)) (ابن عاشور، 1984، 21/174) ، والمسافرون في البر والبحر هم أشد الناس حاجة إلى معرفة الأوقات وتحديد الجهات، إذ الجهل بالبعد الزماني والمكاني خطر عظيم على المسافر، ومعرفتهما تؤدي إلى الانتفاع الكامل من سلوك الطريق (رضا، 1990، 2/48)، فاتضح بأن معرفة الاتجاهات نعمة من نعم الله تعالى ينتفع منها سالك الطريق في البر أو البحر أو الجو. وما يعرف اليوم بنظام التموضع العالمي (Global positioning System) والذي يرمز له بـ(GPS) تقنية ليست جديدة من حيث الأصل، فالناس في قديم الزمان كانوا يستعينون بالنجوم لمعرفة اتجاهاتهم ومكان تواجدهم.

يعدّ القرآن الكريم الطريق والمركوب والعلامات نعمة، وعلى المنعم عليه راكباً كان أو راجلاً شكرها، بالقلب بتذكر النعمة واللسان بحمد الله والثناء عليه سبحانه والجوارح بعدم الاستعانة بتلك النعم في معصية الله سبحانه (الغزالي، د.ت، 4/84)، ومن أبرز المعاصي التي ترتكب فيها – وتحديدا مع نعمتي الطريق والمركوب، قطع الطريق على المارة بقصد أو غير قصد، وتخويف الناس بقيادة المركوب قيادة متهورة، أو الأشد من ذلك التسبب في مقتلهم أو جرحهم أو إتلاف ما يملكون. وبما أن الطريق والمركوب والعلامات نعمة فإن الإنسان مسؤول عنها يوم القيامة (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) (القرآن الكريم، 102: 8).

3/ 3- الاهتمام بأمن الطريق

يتمثل اهتمام القرآن أيضا في أمن الطريق، والمقصود بذلك أن يسلك الإنسان طريقاً وهو آمن على نفسه وماله وعرضه، لأن الطريق مهما كان سهل السلوك، والمركوب مهما كان متوفراً، لا يمكن للإنسان أن يسلك ذلك الطريق إذا كان خائفاً. فأمن الطريق له صلة وثيقة بحياة الناس، ويورد البحث أدلة على ذلك الاهتمام على الصورة الآتية:

الدليل الأول/ ما ورد في قصة قوم سبأ

سبق وأن عرض البحث قصة قوم سبأ وما أنعم الله تعالى عليهم من النعم، وتمثلت وفرة الرزق وجود طرق بين مدينتهم ومدن أخرى، كي ينتقلوا فيما بينها، وجعل الله تعالى تلك المدن قريبة بعضها من بعض كما قال تعالى: (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ

الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ) (القرآن الكريم، 34: 18)، وذلك كي يأمن المسافر على نفسه من قطاع الطرق أو السباع، فلو تعرض للخطر أتاه الغوث.

الدليل الثاني/ قوم لوط وقطع الطريق

المشهور بين الناس أن قوم لوط خسف بهم وأمطروا حجارة بسبب أنهم كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، ولكن القرآن يخبر أنهم كانوا يرتكبون ذنوباً أخرى كانت من أسباب هلاك القوم، وفي ذلك يقول القرآن حكاية عن قول لوط عليه السلام لقومه: (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ..) (القرآن الكريم، 29: 29) ، فتبين أن من الذنوب التي استحق قوم لوط بها العذاب قطع الطريق دل عليه (تقطعون السبيل)، من قتل الناس وسرقة أموالهم (ابن كثير، 1999، 249/6).

الدليل الثالث: حد الحرابة وأمن الطريق

سن الإسلام أغلظ حد على من قطع الطريق على الناس، واعتدى على أرواحهم أو أموالهم، أو روّعهم وإن لم يقتل أو يسلب، ذلك الحد الذي سماه العلماء حد الحرابة، وأصل ذلك الحد هو قوله تعالى: (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (القرآن الكريم، 33/5)، حيث فسره الكثير من العلماء بجريمة قطع الطريق على الناس بغرض قتلهم وسرقة أموالهم، أو تخويفهم (الرازي، 1420هـ، 344/11، ابن كثير، 1999، 85/3، الرملي، 1984، 3/8). وبلغت هذه الجريمة من العظم أن عفو صاحب الدم عن القاتل في الحرابة وقطع الطريق لا يشفع له في ذلك، ولا يؤدي إلى إسقاط إقامة الحد عليه، ذلك أنها جريمة ارتكبت ضد المجتمع كله (الشعراوي، 1997، 3091/5).

الدارس للحدود في الشريعة الإسلامية تتبين له حِكَم كثيرة، ومقاصد كبيرة، منها أن سن الحدود من أجل حماية حياة دين الناس وأموالهم وأعراضهم، ومن المعلوم أن مقاصد الشريعة خمسة، الدين والنفس والمال والعرض والعقل، تكون على قدر عظم الجريمة، فكلما عظمت الجريمة وبلغت آثارها كانت العقوبة شديدة، ولم يثبت في الشريعة أنها سنت عقوبة أشد مما تستحقه الجريمة، ومقصدها في حد يختلف عنه في حد آخر. فالتغليظ في عقوبة هذه الجريمة إنما أحد أسبابه الأساسية ترويع الآمنين الضاربين في الأرض المعمرين فيها بقطع الطريق عليهم، إذ من شان هذا الترويع إذا ما فشا في المجتمع أن يقمع النفوس من أن تنطلق في الأرض للتعمير فيها بقطع الطرق عليهم (النجار، 2008، 125).

3/ 4- الطريق والحضارة والتخطيط الحضري

عدّ القرآن الكريم وجود الطريق داخل المدن والقرى وخارجها عاملاً من عوامل الرقي الحضاري، ويمكن الإشارة إلى قصة قوم سبأ كدليل على ذلك، حيث ازدهرت حضارتهم بعاملين كان أحدهما وفرة البساتين عن يمينها وشمالها، والثاني وجود الطرق والسبل بين مدينتهم والمدن الأخرى، وهكذا كان الحال فيما يتعلق لحياة أهل كل حضارة، حيث عدّ القرآن الكريم الأمن النفسي والأمن الغذائي ووفرة الطرق للتجارة والتنقل من عوامل نشوء حضارتهم، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (القرآن الكريم، 16: 112). وقد امتن الله تعالى على قريش ما كانوا يتنعمون به من الأمان ووفرة الطعام، وأنهم كانت لهم رحلتان، إحداهما في الشتاء والأخرى كانت في الصيف، فنالوا حظاً كبيراً من العيش الهنيئ، فطريق اليمن وطريق الشام كانا يشكلان مصدر قوتهم التجارية، وسبباً في الرغد والسعادة (ابن كثير، 1999، 466/8)، .

الأمر ينطبق على أحوال الناس في كل عصر، حيث تشهد وسائل النقل أهمية بالغة في نمو الاقتصاد لأي بلد، ويرى الدارسون أن العملية الإنتاجية تعتمد على وسيلة النقل من أجل اكتمال المنفعة منها وإيصال المنتج إلى المستهلك البعيد وبدونها تكون تلك العملية ناقصة (الزوكة،2000، 17). ويرى دارسون آخرون أن الحضارة الإسلامية تميزت بأنها كانت حضارة النقل والمواصلات. (الشيراوي،1992، 18)، والذي يبدو ان سبب تميز الحضارة الإسلامية بالنقل اهتمام القرآن الكريم والسنة النبوية بالطرقات والمسائل المتعلقة بها، كما بين البحث ذلك سابقاً.

3/ 5- تكريم الإنسان وطرق البر والبحر

الفرع الأخير الذي يختم به البحث محاور اهتمام القرآن الكريم بالطريق، والذي يعد تعليلاً لكل ما سبق، هو أن القرآن الكريم عدّ حمل الإنسان في البر والبحر من صور وأنواع التكريم له، وهذا ينجلي في قوله تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) (القرآن الكريم، 17: 70) ، فأول الآية تتحدث عن

تكريم بني آدم، وهذا التكريم من الخالق سبحانه الذي خلق المخلوقات جميعا، وهذا التكريم ورد مطلقاً لكل بني آدم غنيهم وفقيرهم، قويهم وضعيفهم، حاكمهم ومحكومهم، لكل منهم تكريم وكرامة بحكم الخلق، وهذا التكريم يحمل معاني العزة والمنعة، والحصانة والحماية، والرفعة والتقدير للإنسان، فلا يجوز لأحد من الخلق أن يعتدي عليه، أو أن يتسبب في أذى معنوي أو مادي، من أجل أن يعيش حياته آمنا مطمئنا عزيزا كريما، والحكمة في ذلك كله أن يتمتع الإنسان المكرم بالأمن الذاتي الذي يمكنه من القيام بمهام الاستخلاف في الأرض بكفاءة وقدرة ووعي (الأسمر،2001، 30).

الآية الكريمة لم تذكر من أوجه التكريم إلا وجهين، لا توجد في مخلوق غير الإنسان، الأول حملهم على المركوب في البر والسفن في البحر، والثاني رزقهم من طيبات الطعام، وقد خصص الله تعالى ذلك التكريم بهذين الوجهين، يقول بعض المفسرين: ((هذا تخصيص لبعض أنواع التكريم، حملهم سبحانه في البر على الدواب، وفي البحر على السفن)) (الشوكاني، 1414هـ،290/3) .

4- أهمية الطريق في منظور السنة الشريفة

إذا كان القرآن الكريم قد اهتم بالطريق اهتماماً بالغاً كما تبين في المطلب السابق، فإن اهتمام السنة جاء مكملاً لاهتمام القرآن، ومضيفاً إليه ما لم يذكره، ويمكن بحث ذلك في الفروع الآتية:

4/ 1- حسن التعامل مع الطريق من الإيمان

إن مما يزيد من كمال الشريعة وصلاحها لكل زمان ومكان أن جعلت حسن التعامل مع الناس وكل ما له شأن و متعلق بحياتهم من الإيمان، ومن أجل عدم حياد البحث عن مسار موضوعه فلا يذكر أمثلة لذلك، وإنما يسلط الضوء على التعامل مع الطريق، ويبين اهتمام السنة به، حيث ورد في حديث الرسول (صلَّى الله عليه وسلم) الذي رواه عنه أبو هريرة (رضي الله عنه): ((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ)) (مسلم، صحيح مسلم، د.ت، 63/1)، ففي هذا الحديث دليل على على أن الإيمان لا ينحصر في علاقة العبد بربه، بل يشمل علاقته بمن حوله من الناس وما يتعلق بهم، فإماطة الأذى عن الطريق هو حسن علاقة المسلم بالناس، وهو دليل حبه لهم وحرصه على دفع ما يتسبب في الأذى لهم، والطريق الذي له صلة وثيقة بحياة الناس ومعاشهم، جُعِلَ مطلباً يجب حسن التعامل معه لتحقيق الإيمان. قال النووي في شرحه هذا الحديث: ((هذه الأحاديث المذكورة في الباب ظاهرة في فضل إزالة الأذى عن الطريق، سواء كان الأذى شجرة تؤذي، أو غصن شوك أو حجرا يعثر به، أو قذرا أو جيفة وغير ذلك، وإماطة الأذى عن الطريق من شعب الايمان كما سبق في الحديث الصحيح، وفيه التنبيه على فضيلة كل ما نفع المسلمين، وأزال عنهم ضررا)) (النووي،1392 هـ، 71/16) ، وقد فصّل بعض أهل العلم الكلام في المراد بإماطة الأذى بقولهم: ((المراد بإماطة الأذى عن الطريق إزالة ما يؤذي المارة من حجر أو شوك، وكذا قطع الأحجار من الأماكن الوعرة كما يفعل في طريق، وكذا كنس الطريق من التراب الذي يتأذى به المار وردم ما فيه من حفرة أو وهدة وقطع شجرة تكون في الطريق وفي معناه توسيع الطرق التي تضيق على المارة وإقامة من يبيع أو يشتري في وسط الطرق العامة كمحل السعي بين الصفا والمروة ونحو ذلك فكله من باب إماطة الأذى عن الطريق ومن ذلك ما يرتفع إلى درجة الوجوب كالبئر التي في وسط الطريق التي يخشى أن يسقط فيها الأعمى والصغير والدابة فإنه يجب طمها أو التحويط عليها إن لم يضر ذلك بالمارة)) (زين الدين العراقي، د.ت، 304/2).

4/ 2- بيان ثواب إماطة الأذى عن الطريق:

بيّن الرسول (صلَّى الله عليه وسلم) ثواب إماطة الأذى عن الطريق، ومؤدى ذلك الثواب مغفرة الله تعالى للعبد، ففي الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبي (صلَّى الله عليه وسلم) قال: ((بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ، وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ، فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ)) (البخاري، صحيح البخاري، 1422هـ،135/3)، وكذلك أخبر (عليه الصلاة والسلام) أن من ثواب الإماطة دخول الجنة، فقد وردت أحاديث في ذلك، منها ما رواه أبو هريرة عن النبي قوله (عليه الصلاة والسلام): ((مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ، فَقَالَ: وَاللهِ لَأُنَحِّيَنَّ هَذَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ)) (مسلم، صحيح مسلم، د.ت، 2021/4) ، وفي ذلك حث من النبي (صلَّى الله عليه وسلم) لأصحابه والمسلمين أجمعين على الاهتمام بحسن التعامل مع الطريق.

4/ 3- النهي عن إحداث الأذى في الطريق

على نحو ما أمر (عليه الصلاة والسلام) بإماطة الأذى عن الطريق، فقد أمر بعدم التسبب في شيء يؤدي إلى حدوث الأذى، فقد وردت أحاديث تخبر عن أمر النبي (صلَّى الله عليه وسلم) بمن كان في يده سلاح، سيف أو سهم ومر في مسجد أو سوق أو أي

مكان يجمع الناس أن يأخذ بنصل سلاحه كي لا يؤذي الناس، والنصل هو حديدة السيف والسهم والرمح، (ابن منظور1414هـ، 662/11)، ومن تلك الأحاديث ما رواه أبو موسى عن النبي (صلَّى الله عليه وسلم) قال: ((إِذَا مَرَّ أَحَدُكُمْ فِي مَسْجِدِنَا، أَوْ فِي سُوقِنَا، وَمَعَهُ نَبْلٌ، فَلْيُمْسِكْ عَلَى نِصَالِهَا بِكَفِّهِ، أَنْ يُصِيبَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا بِشَيْءٍ)) (مسلم، صحيح مسلم د.ت، 2019/4)، يقول النووي: ((فيه هذا الأدب وهو الإمساك بنصالها عند إرادة المرور بين الناس في مسجد أو سوق أو غيرهما)) (النووي، 1392هـ، 169/16) ، والمرور بين الناس يكون في الطرقات أيضاً، ودل عليه قوله (أو غيرهما).

لم ينه النبي (صلَّى الله عليه وسلم) عن الأذى الجسدي فقط، بل نهى عن الأذى المعنوي أيضاً، كالذي يقضي حاجته في الطرقات وأماكن اجتماع الناس، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي (صلَّى الله عليه وسلم) أنه قال: ((اتَّقُوا اللَّعَّانَيْنِ قَالُوا: وَمَا اللَّعَّانَانِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ فِي ظِلِّهِمْ)) (مسلم، صحيح مسلم، د.ت، 226/1)، قال بعض أهل العلم: ((يريد الأمرين الجالبين للّعن الحاملين الناس عليه والداعِيَين إليه، وذلك أن من فعلهما لعن وشتم فلما صارا سببا لذلك أضيف إليهما الفعل فكان كأنهما اللاعنان)) (الخطابي، 1932، 21/1)، فمنظر فضلات الإنسان من بول أو غائط يبعث على الإشمئزاز وهذا يندرج تحت ما يسمى بالتلوث البصري في العلوم المتعلقة بالبيئة، وكذلك الرائحة الكريهة تعكر المزاج، والأخطر من ذلك كله انتشار الفيروسات بسبب تلوث الهواء مسببة أمراضاً خطيرة.

4/ 4- الطريق ميدان كسب الحسنات

لم ينحصر الأمر في مسألة عدم إحداث الأذى وإماطتها عن الطريق، بل جاء اهتمام السنة بالطريق في عدّه مكاناً للتزود من الأعمال الصالحة، وعد الكثير من الأعمال والتصرفات الفضيلة من الصدقة، فقد روى أبو هريرة عن النبي (صلَّى الله عليه وسلم) أنه قال: ((كُلُّ سُلاَمَى عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ، يُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، يُحَامِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ، وَكُلُّ خَطْوَةٍ يَمْشِيهَا إِلَى الصَّلاَةِ صَدَقَةٌ، وَدَلُّ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ)) (البخاري، صحيح البخاري، 1422هـ، 35/4)، وموطن الشاهد في قوله: (وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة)، وقوله (دل الطريق صدقة)، فبما أن الله تعالى قد أنعم على الإنسان بنعمه التي لا تعد ولا تحصى في نفسه وفي حوله، فإن على الإنسان أن يتصدق بصدقة مقابل كل نعمة، وليس مرة واحدة، بل كل يوم، فإن لم يجد المال الكافي للتصدق، فعليه بالطريق والناس الموجودين فيه، فإعانته شخصاً في ركوب مركوبه، ولم يتغير الوضع من حيث الأساس وإن تغير في الشكل، فإن كان الناس في السابق يركبون الدواب وقد يحتاج أحدهم إعانة غيره في ركوب الدابة لأي عذر كان، فإنهم اليوم يركبون السيارات وقد يتعذر عليهم ركوبها لا لعلوها بل لعطب بها، وكثيرا ما يزول العطب بدفع السيارة مسافة قليلة فلو أعان السائقَ في ذلك كان كإعانته في حمله وركوبه السيارة، فالنتيجة واحدة، أو مساعدته بإصلاح العطب بنفسه أو بغيره، كل ذلك يقاس على حمل الإنسان على الدابة. وفيما يتعلق بحمل متاع الشخص على مركوبه، فالوضع لم يتغير أيضاً من حيث الفعل وإن تغير المركوب، وهو يثاب عليه ثواب صدقة، وكذلك إذا سأله شخص عن وجهة أو مكان معين فدله عليه فله ثواب الصدقة أيضاً.

في حديث آخر قريب من سابقه روي عن النبي (صلَّى الله عليه وسلم) أنه قال: ((تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ المُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلاَلِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ البَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ)) (الترمذي، 1975، 339/4).

4/ 5- الإساءة إلى الطريق وأثرها في نقص الأجر

كما بيّن الرسول (صلَّى الله عليه وسلم) أن الطريق ميدان كسب الحسنات، فإن الإساءة إليه سبب من أسباب نقص أجر الأعمال الصالحة، وفي ذلك ورد الحديث الآتي: ((عن سَهلِ بن معاذِ بن أنسٍ الجُهَنيِّ عن أبيه، قال: غزوتُ مع نبى الله (صلَّى الله عليه وسلم) غزوةَ كذا وكذا فَضَيّقَ الناسُ المنازلَ، وقطَعُوا الطريقَ، فبعثَ نبي الله (صلَّى الله عليه وسلم) مُنادياً يُنادي في الناسِ: أنَّ مَن ضَيّق منزلاً أو قَطَعَ طريقاً، فلا جِهادَ له)) (أبو داود، د.ت، 41/3، البيهقي، 2003، 256/9)، وقال أهل العلم في بيان معنى (لا جهاد له) ((ليس له كمال ثواب المجاهدة لإضراره الناس)) (القاري، 2002، 2522/6)، فإذا كان الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام والذي يبذل فيه المسلم روحه وماله في سبيل الله تعالى ينقص أجره عند الاعتداء على الطريق، أليس حرياً أن ينقص أجر الأعمال الصالحة الأخرى وهي دون الجهاد بالاعتداء نفسه.

الخاتمة:

بعد دراسة مفهوم الطريق وأهميته في القرآن الكريم والسنة وآراء أهل التحقيق في الموضوع واستشراف المصادر توصل البحث إلى عدد من النتائج والتوصيات نبرز أهمها على الوجه الآتي:

أولا/ النتائج

تمخضت عن البحث جملة نتائج يمكن إيجاز أهمها على الوجه الآتي:

1- كشف البحث أن مفهوم الطريق في المعجمات تبين أنه مأخوذ من مادة (ط.ر.ق)، وقد حددت لهذه المادة أربعة معان، إتيان المنزل ليلاً، والثاني الضرب، والثالث الاسترخاء، والرابع تطابق الشيء على الشيء، ووجوه المناسبة بين الطريق وتلك المعاني هي كثرة التورد للأول، وهيئة الماشي وضربه الطريق برجليه للثاني، و للثالث سهولة المشي ومطاوعة الطريق، وللرابع علو الطريق على الأرض على هيئة طبقة.

2- أما ما يتعلق بكتب الاصطلاح فوجد البحث أنها لم تزد شيئاً يذكر على ما ذكرته المعجمات، فضلاً عن ابتعاد بعضها بكلمة الطريق واستعماله في مفهوم بعيد عن المعنى المألوف، ومعظمها سلكت مسلكاً معجمياً من حيث بيان هيئة الطريق واشتقاق الكلمة وأنواعها وفق اعتياد السلوك والإيصال للمنتهى.

3- توصل الباحثان عند دراسة مفهوم الطريق في كتب الفقه في المذاهب الأربعة إلى أن تلك الكتب قد ركزت على قيدين هما سعة الطريق ونفاذه وانسداده، وعلى هذا التفريع حددوا تعريفات للطريق دون التعرض لماهية الطريق.

4- وجد البحث بعد التحري من المصادر والمراجع والكتب المساعدة أن أنظمة المرور المعاصرة لم تبين ماهية الطريق ومفهومه بالشكل الذي يشفي غليل الباحثين، وبدلاً عن ذلك ركزّت على قيود خارجة عن تلك الماهية مثل قيد السالكين للطريق وفق هيئة السلوك، من حيث المشي والركوب، وقيد حال الطريق وفق المعبّد وغير المعبّد. وأن أنظمة المرور المعاصرة حققت التطور الكبير في مفهوم الطريق وكيفية استخدامه.

5- تبين بالتحري والبحث أن القرآن الكريم اهتم بالطريق، حيث عده من مسخرات الله تعالى وأنه يقتضي التأمل، وأن الطريق وما فيه من مركوب وعلامات نعمة كبيرة يجب شكر الله تعالى عليها، ومسألة أمن الطريق لها أهميتها حيث كان سبباً في قيام الحضارات كما تبين في قصة سبأ، والاعتداء عليه سبباً لهلاك قوم لوط، وقد حد أغلظ الحدود على قطع الطريق وهو حد الحرابة، والقرآن يعد وجود الطريق أحد عوامل النهوض الحضاري، ويعد كذلك حمل الإنسان في البر والبحر دليلا على تكريمه ومكانته عند الله تعالى.

6- أكد البحث على أن اهتمام السنة جاء مكملاً لاهتمام القرآن بالطريق، حيث عد إماطة الأذى عن الطريق من الإيمان، وعد الإحسان إلى الطريق سبباً يدخل صاحبه الجنة، وتوعد على من يحدث الأذى فيه، و أن الطريق ميدان لكسب الحسنات، وأن أعمال الإنسان الصالحة ينقص أجرها إذا ما اقترنت بقطع الطريق أو تضييقه وإن في حالة الجهاد.

ثانياً/ التوصيات:

في ختام هذا البحث يوصي الباحثان بعدد من التوصيات على النحو الآتي:

1- ضرورة العمل الجاد على تغيير نظرة أفراد المجتمع المسلم للطريق وتوعيتهم دينيا وقانونياً، كي يتغير تعاملهم معه نحو الأفضل، فالطريق آية دالة على عظمة الله تستوجب احترامه، وهي نعمة منه سبحانه تستوجب شكره عليها، وكذلك ما يستخدمه من مركوب نعمة، وشكرها يكون بوجوه منها عدم الاستعانة بالمركوب في معصية الله تعالى وإلحاق الأذى بالناس.

2- نوصي تذكير الجهات الحكومية أن الطرقات تمثل معالم التحضر لأي بلد، والاهتمام المزيد بها تأسيساً وصيانةً يؤدي إلى مزيد من التحضر، وإظهار البلد بمظهر الدول المتقدمة حضارياً.

3- أهمية تذكير أفراد المجتمع أن حسن التعامل مع الطريق من الإيمان، ومن وجوهه المشاركة الجماعية في المحافظة على نظافته، سواء من قبل الجهات الحكومية أو المواطنين من المشاة أو السائقين.

المصادر

* القرآن الكريم بقراءة حفص عن عاصم

1- ابن الجوزي، عبد الرحمن علي محمد (ت597هـ)، *تذكرة الأريب في تفسير الغريب*. تحقيق: طارق فتحي، ط1، دار الكتب العلمية/ بيروت، 2004م.

2- ابن النجيم المصري، زين الدين إبراهيم محمد(ت 970هـ)، *البحر الرائق شرح كنز الدقائق*. ط2، دار الكتاب الإسلامي، د.ت.

3- ابن عابدين، محمد أمين عمر (ت1252هـ). *رد المحتار على الدر المختار*. ط2، بيروت/ دار الفكر ،1992م.

4- ابن عاشور، محمد الطاهر محمد (ت 1393هـ). التحرير والتنوير. د.ط، تونس/ الدار التونسية للنشر، 1984م.

5- ابن فارس، أحمد بن فارس زكريا (ت395هـ). *مقاييس اللغة*. تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، د. ط، دمشق/ دار الفكر، 1979م.

6- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل عمر (ت774هـ)، *تفسير القرآن العظيم*. ط2. الرياض/ دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999م.

7- ابن منظور، محمد بن مكرم (ت711هـ)، *لسان العرب*. ط3. بيروت/ دار صادر، 1414ه.

8- أبو السعود، محمد محمد مصطفى (ت982هـ)، *إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم*. د. ط بيروت/ دار إحياء التراث العربي، د.ت.

9- أبو حبيب، سعدي، *القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً*. ط2. دمشق/ دار الفكر، 1988م.

10- أبو داود، سليمان بن أشعث بن إسحاق (ت275ه)، *سنن أبي داود*. تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، د. ط. بيروت/ المكتبة العصرية، (د.ت).

11- الأزهري، محمد أحمد (ت370هـ)، *تهذيب اللغة*. تحقيق: محمد عوض مرعب، ط1. بيروت/ دار إحياء التراث العربي، 2001م.

12- الأسمر، أحمد رجب، *النبي المربي*. ط1. عمان/ دار الفرقان للنشر والتوزيع، 2001م.

13- البجيرمي، سليمان محمد عمر (ت 1221هـ). *تحفة الحبيب على شرح الخطيب*.د. ط. بيروت/ دار الفكر، 1995م.

14- البخاري، محمد إسماعيل (ت256هـ)، *الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) وسننه وأيامه*. تحقيق: محمد زهير ناصر، ط1. الرياض/ دار طوق النجاة، 1422هـ

15- البغوي، حسين مسعود محمد (ت510 ه)، *معالم التنزيل في تفسير القرآن*. تحقيق: عبدالرزاق المهدي، ط1. بيروت/ دار إحياء التراث العربي، 1420هـ

16- البيهقي، أحمد حسين علي (ت458هـ)، *السنن الكبرى*. تحقيق محمد عبدالقادر عطا، ط3. بيروت/ دار الكتب العلمية، 2003م.

17- الترمذي، محمد عيسى سورة (ت279هـ). *سنن الترمذي*. تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخر، ط2. مصر/ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1975م.

18- التهانوي، محمد علي *(ت1158هـ)*، *كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم. تحقيق: علي دحروج، ط1. بيروت/ مكتبة لبنان ناشرون*، 1996م.

19- الجرجاني، علي محمد علي (ت816هـ)، *التعريفات. تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، ط1*. بيروت/ دار الكتب العلمية، 1983م.

20- جمهورية العراق، وزارة الداخلية مديرية المرور العامة *قانون المرور رقم 86 لعام 2004*، 2004م.

21- الخطابي، حمد محمد إبراهيم (ت 388هـ). *معالم السنن*. ط1. حلب/ المطبعة العلمية، 1932م.

22- الخطيب الشربيني، محمد أحمد (ت977هـ)، *الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع*. تحقيق: مكتب البحوث والدراسات د. ط. بيروت/ دار الفكر، (د.ت).

23- الرازي، محمد عمر حسن (ت606هـ)، *مفاتيح الغيب*. ط3. بيروت/ دار إحياء التراث العربي، 1420م.

24- رضا، محمد رشيد علي (ت1354هـ). *تفسير المنار*. د. ط. القاهرة/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.

25- الرملي، شمس الدين محمد أبو العباس(1004هـ). *نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج*. الطبعة الأخيرة. بيروت/ دار الفكر، 1984م.

26- الزحيلي، وهبة مصطفى. *التفسير الوسيط*. ط1. دمشق/ دار الفكر، 1422هـ

27- الزمخشري، محمود عمرو أحمد(ت538ه). *أساس البلاغة*. ط1. بيروت/ دار الكتب العلمية، 1998م.

28- الزوكة، محمد خميس. *جغرافية النقل*. ط1. الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 2000م.

29- زين الدين العراقي، عبدالرحيم الحسين. طرح التثريب في شرح التقريب. د. ط. بيروت/ دار إحياء التراث العربي، د.ت.

30- الشربيني، محمد أحمد. (ت977هـ) *السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير*. د. ط. القاهرة: مطبعة بولاق، 1285هـ

31- الشعراوي، محمد متولي *(ت1418هـ)*، *تفسير الشعراوي*. د. ط. مطابع أخبار اليوم، 1997م.

32- الشوكاني، محمد علي محمد (ت1250هـ). *فتح القدير*. ط1. دمشق/ دار ابن كثير، 1414هـ

33- الشيراوي، يوسف أحمد. الاتصالات والمواصلات في الحضارة الإسلامية. ط1. لندن/ رياض الريس للكتب والنشر، 1992م.

34- الطبري، محمد بن جرير (ت310هـ). جامع البيان في تأويل آي القرآن. ط1. بيروت/ مؤسسة الرسالة، 2000م.

35- العيني، محمود أحمد موسى (ت855هـ). *البناية شرح الهداية*. ط1. بيروت/ دار الكتب العلمية، 2000م.

36- الغزالي، محمد بن محمد (ت505هـ). *إحياء علوم الدين*. د. ط. بيروت/ دار المعرفة، د.ت.

37- القاري، علي سلطان محمد (ت1014هـ). مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح. الطبعة الأولى. بيروت: دار الفكر، 2002م.

38- القحطاني، محمد علي مشبب. *أحكام حوادث المرور في الشريعة الإسلامية*. (رسالة ماجستير) مقدمة إلى جامعة أم القرى بإشراف حمزة حسين العفر، 1988م.

39- القرافي، شهاب الدين أحمد إدريس (ت684هـ). *الذخيرة*. ط1. بيروت/ دار الغرب الغرب الإسلامي، 1994م.

40- الكاساني، أبوبكر مسعود أحمد (ت587هـ). *بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع*. ط2. بيروت/ دار الكتب العلمية، 1986م.

41- الكفوي، أيوب موسى. *الكليات. د. ط*. بيروت/ مؤسسة الرسالة، د.ت.

42- مسلم، مسلم بن الحجاج (ت261هـ). المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم).د. ط. بيروت/ دار إحياء التراث العربي،(د.ت).

43- المملكة الأردنية. *قانون السير الأردني رقم (49) لعام 2008*. وزارة الداخلية، 2008م.

44- المملكة العربية السعودية. وزارة الداخلية، الإدارة العامة للمرور، *نظام المرور واللائحة التنفيذية له*. 1429هـ.

45- المناوي، محمد عبدالرؤوف (ت1031هـ). *التوقيف على مهمات التعاريف. ط1*. القاهرة/ عالم الكتب، 1990م.

46- النجار، عبدالمجيد. *مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة*. ط1. بيروت/ دار الغرب الإسلامي، 2008م.

47- النووي، محيي الدين يحيى شرف (ت676 ه). *المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج*. ط2. بيروت/ دار إحياء التراث العربي، 1392هـ

واتای (ڕێگا) و گرنگیەکانی لە قورئان و فەرموودە

سداد جمال عبدالكريم
کۆلیژی زانستە ئیسلامییەکان - بەشی بنەماکانی ئایین / زانکۆی سەلاحەددین - هەولێر

شكر محمود مامەسێنی
کۆلیژی زانستە ئیسلامییەکان - بەشی خوێندنی ئیسلامی/ زانکۆی سەلاحەددین - هەولێر

پوختە

خوای گەورە ئایین ئیسلامی بە ئایینێکی تەواو وەسف دەکات و بەو ئایینە رازییە بۆ بەندەکانی (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) (قورئانی پیرۆز، 5: 3)، واتە ئەمرۆ ئاینەکەی ئێوەم تەواو کرد و نیعمەتی خۆم بۆ ئەوە تەواو کرد و بە ئیسلام رازی بووم بێتە بە ئاینتان. تەواوی ئایینی ئیسلامی لەو ئەحکامانە دێت کە هەموو بابەتێکی بچوك و گەورە لە کاروباری مرۆڤ لە خۆگرتووە، و لەوانە ئەو ئەحکامانەی پەیوەندارن بە شوێنەکانی ژیانی مرۆڤ. دیارە کە مرۆڤ ئەو شوێنانەی کە لێ دەبێت دوو جۆرن، یەکەمیان تێیدا نیشتەجێیە زۆربەی کاتەکانی کە ئەویش ماڵیتی، و دووەم ئەو شوێنەیە کە هەندێك لە کاتەکانی تێیدا بەسەر دەبات بە مەبەستی کاروکاسبی بێت یان زانستخوازی یان سەفەر کردن بۆ شارێك، وە لە نێوان هەردوو شوێن پێوستە ڕێگایەك هەبێت بۆ هاتوچۆکردن پێیدا، بۆیە ڕێگا ئەو بەشەیە کە هەرگیز مرۆڤ دەستبەرداری نابێت.

هاتنەوە دەرەوەی مرۆڤ لە ماڵ دوو ئاکامی مسۆگەری لێ دەکەوێتەوە، یەکەمیان تێکەڵاوی لەگەڵ خەلکی و دووەمان کارتێکردنیتی لە ژینگە بە هەڵسوکەوتەکانی، و ئایینی ئیسلام یاسای شەرعی پەیوەندار بە هەردوو ئاکام داڕشتووە، چونکە مرۆڤ بە سروشتی خۆی کۆمەڵایەتیە، و تێکەڵاوی لەگەڵ خەڵك کارێکە هەمیشە هەیە، هەرچی ژینگەیە خوای گەورە فەرمانی چاودێری کردنی داوە لەبەر دوو هۆکار، یەکەمیان ئەو لە بەردەستکراوەکانی خوایە بۆ مرۆڤ، ودووەمیان مرۆڤ لە ژینگەدا هاوبەشە لەگەڵ خەڵکی، و هەر دەستدرێژیکردنە سەر ژینگە دەستدرێژکردنە سەر بەشی خەڵکی لێی، بۆ ئەمەیە کە قورئان و فەرموودە گرنگی و بایەخیان بە ڕێگا داوە، ئەم توێژینەوەیەش بۆ لێکۆڵینەوە لەم گرنگی پێدانە ئەنجام درواوە بە پشتیوانی خوای گەورە.

The concept of the road and its importance in the Quran and Sunnah

Sidad Jamal Abdulkarim
Depatrment of Religion basics - College of Islamic Sciences / Salahaddin University- Erbil

Shukur Mahmud Mamseni
Department of Islamic Studies- College of Islamic Sciences / Salahaddin University- Erbil

Abstract

The religion of Islam is considered to be a complete religion as stated in the Qur'an ("Today I have completed your religion and I have completed my grace upon you, and I have given you Islam as our religion") (Qur'an 5: 3). The perfection of the religion of Islam in its provisions, which did not leave small and large in the affairs of man, but counted, including on the place of human life . İt's abvious that the place where the person has two types: the first place where he dwells most of his time and which is his home, and the second spends some of his time to earn a living or to seek knowledge or travel to a country, and between the two places there must be a road to go back and forth, So the road is a facility that can not be used.

And the departure of man from his home two consequences, the first contact people and the second impact on his actions in the environment. Islam has made provisions for both things, because man is a citizen by nature, and the contact of people is inescapable, As for the environment, Allaah has commanded to observe it for two reasons, one is that it is one of God's savings to man, The second is that it is shared between him and the people, and the assault on him is forbidden because it is an attack on the share of the people. For this reason, the Quran and the Sunnah took care of the road, and this research came to study this concern.

Keyword: Environment, Quran, Islam.